تجلي المخلّص وسر الصليب

الأستاذ جورج مانتزاريذس

نقلها إلى العربية الأب أنطوان ملكي

يحتلّ تجلي المخلّص مكانة مركزية في الكنيسة واللاهوت الأرثوذكسيين. إنه الحدث الذي يكشف مجد الكنيسة والمؤمنين. إنه دليل على الوضع الجديد الذي دخل التاريخ بمجيء المسيح. في التجلي ، أظهر المسيح من خلال طبيعته البشرية مجد لاهوته غير المخلوق. في نفس الوقت، جمع البشر معه في المجد الإلهي غير المخلوق.

موسى وإيليا يشتركان في نفس الشعاع مثل الرب. والفرق الوحيد هو أن المسيح هو المصدر، بينما هما فمتلقيان للنور الإلهي. سبب تجلي المسيح أمام تلاميذه كان اقتراب اليوم الذي سوف يُصلب فيه: "حتى عندما يعاينوك مصلوبًا، يفهموا أن آلامك طوعاً باختيارك".

بالتجلي يؤكد المسيح، من ناحية ألوهيته التي اعترف بها تلاميذه قبل ذلك بقليل بفم القديس بطرس، ومن ناحية أخرى يقدّم الدليل الأول على مجيء مملكته. الاحتفال بالتجلي في السادس من آب قد لا يكون مساعداً في تذكّر العلاقة المباشرة مع صليب المسيح. فقط إذا تذكّرنا أنه، بعد بضعة أسابيع، في الرابع عشر من أيلول، نحتفل بعيد ارتفاع الصليب الموقر، الذي يذكّرنا بيوم الجمعة العظيمة، نجد الرابط التاريخي مع العيد.

إذن، كحدث تاريخي، التجلي هو قبل أسابيع قليلة من الآلام. في تقويم أعياد الكنيسة، كان المفترض أن يقع قبل أسابيع قليلة من عيد الفصح، وربما بعيداً عن عيد ارتفاع الصليب الموقّر. ليس من قبيل الصدفة أن الكنيسة اختارت أن تقيم هناك عيدًا آخر: عيد لاهوتي نور ثابور، القديس غريغوريوس بالاماس. فالأحد الثاني من الصوم الكبير، قبل خمسة أسابيع من الفصح، مكرس للقديس غريغوريوس بالاماس.

ومن السمات أيضًا أن في الأناجيل الإزائية الثلاثة، يحدث التجلي (مرقس ٩:٣-٨) مباشرةً بعد إعلان المسيح أن " إِنَّ مِنَ الْقِيَامِ هٰهُنَا قَوْمًا لاَ يَذُوقُونَ الْمَوْتَ حَتَّى يَرَوْا مَلَكُوتَ اللهِ قَدْ أَتَى بِقُوَّةٍ" (مرقس ١:٩). وهكذا، فإن تجلي المسيح، كما يشير أيضًا التقليد الآبائي، هو ارتسام "مرتَقَب" لملكوت الله.

[توجد هنا مشكلة في بعض الترجمات إذ "يُسقِط" المترجمون، عن الفولغاتا اللاتينية وليس عن اليونانية، عبارة "بقوة" فيترجمون ما معناه حرفياً "في الفضيلة". لكن عبارة "ἐν δυνάμει" قد تعني "في السلطة"، وهي أيضاً تُستخدم لتعني "ناشئ، منبئ". بالنظر إلى تجاور قول المسيح مع حدث التجلي، من الواضح أن التجلي، كما يفسره الآباء، هو "تلميح" لملكوت السماوات...].

بتجليه، يؤكد المسيح ويعزز الإيمان بألوهيته التي اعترف بها تلاميذه بالفعل. في التجلي، لم يفترض المسيح شيئًا لم يكن لديه من قبل، لكنه كشف - بقدر استطاعة تلاميذه أن يستوعبوا - المجد الذي كان يتمتع به دائمًا كإله / إنسان. بعبارة أخرى، لم يكن المجد الذي رآه التلاميذ على جبل ثابور ظاهرة عابرة، بل هو النور الأبدي لطبيعة المسيح الإلهية. هذا ما قصده كاتب التراتيل في كنيستنا في طروبارية العيد: "لمّا تجليّت أيها المسيح الإله على الجبل، أظهرت مجدَك للتلاميذ حسبما استطاعوا...".

نور التجلي هو النور غير المخلوق لملكوت السموات الذي دخل العالم بقدوم المسيح. بالطبع، الملكوت، كونه بلا بداية أو نهاية، ليس محصوراً في الزمن بل يتغلب عليه ويغيّره. إنه لا يبدأ بنهاية التاريخ، ولكنه موجود بالفعل فيه وفوقه وسيستمر في الوجود بعده.

إذن، في الواقع، هذا المجيء "القادم" لملكوت الله ليس أكثر من إظهار "لإمكانياته". ليس الأمر أن شيئًا قادمًا لم يكن موجودًا من قبل، ولكن هذا الشيء قد تم الكشف عنه وهوكان موجودًا بالفعل وسيظل موجودًا دائمًا. تمامًا كما أن النور غير المخلوق الذي أُعلن للتلاميذ عند التجلي كان موجودًا منذ البداية ويبقى إلى الأبد في أقنوم المسيح الإلهي الإنساني، كذلك يظهر ملكوت السموات الذي جاء إلى العالم مع المسيح، للمؤمنين أحيانًا، كدليل على الدهر الآتي.

لا يعتمد الإيمان المسيحي على أي مبدأ أخلاقي أو أيديولوجيا، بل يقوم على إعلان ملكوت الله في المسيح في التاريخ. والدليل على ذلك هو شهادة القديس بطرس، الذي يشير مباشرة إلى خبرته في التجلي، من أجل بيان حقيقة الرسالة المسيحية: "لأَنَّنَا لَمْ نَتْبَعْ خُرَافَاتٍ مُصَنَّعَةً، إِذْ عَرَّفْنَاكُمْ بِقُوَّةِ رَبِّنَا يَسُوعَ الْمَسِيحِ وَمَجِيئِهِ، بَلْ قَدْ كُنَّا مُعَايِنِينَ عَظَمَتَهُ"(٢بطرس ١:١٦).

بدون اختبار السماوي، لا يمكن للناس أن يتحرروا من الأرضي. ما كان لرسل المسيح والشهداء والقديسين والنساك في الكنيسة أن يغلبوا العالم ويقدموا كل شيء للمسيح لو لم يتذوقوا مسبَقاً بعض النعيم الأبدي. يُقتَنى التبني في المسيح في هذه الحياة الحالية. كتب القديس يوحنا الرسول والإنجيلي: " الآنَ نَحْنُ أَوْلاَدُ اللهِ، وَلَمْ يُظْهَرْ بَعْدُ مَاذَا سَنَكُونُ. وَلكِنْ نَعْلَمُ أَنَّهُ إِذَا أُظْهِرَ نَكُونُ مِثْلَهُ، لأَنَّنَا سَنَرَاهُ كَمَا هُوَ" (ايوحنا ٢:٣).

يكتسب الناس معنى تبنّي المسيح في حياتهم من خلال حفظ الوصايا الإلهية. بإنكار الذات وتقدمتها لله وإرادته، وكلاهما من أشكال الموت، يصبح المؤمن شريكًا في الحياة الإلهية والملكوت.

لا يبدأ التذوق المسبَق للأبدية بعد الصليب، بل مع الصليب. إن طاعة إرادة الله "حتى الموت" هي بالفعل اشتراك في القيامة. فكما أن مجد المسيح يبدأ بالصليب الذي يطيح بقوى الشرير، كذلك يبدأ مجد المسيحيين بالقبول الطوعي بالموت من أجل المسيح الذي يقهر الإنسان القديم ويعلن الجديد.

إن تجلي المسيح هو التهيئة للصليب. وصليب المسيح هو نقطة بداية مجده كإنسان. بتجليه، لم يكتسب المسيح شيئًا جديدًا، بل أعطى تلاميذه القوة قبل صلبه. احتاج التلاميذ إلى التشديد حتى يتمكنوا من تقبّل صلب معلمهم وصليبهم الذي حملوه لاحقًا باسم معلمهم.

إن بوابة ملكوت الله هي الصليب. ومجد الله في العالم يبدأ بالصليب. كل ظهور لمجد الله في التاريخ، قبل أو بعد مجيء المسيح، هو مقدمة أو امتداد لصليب المسيح. كل اختبار لمجد الله في هذه الحياة الحالية يذيع سر الصليب أو يرافقه.

Source: Ορθόδοξη Μαρτυρία, Cyprus, no. 49, Spring-Summer 1996, pp. 1-8.